صاحبِ ایمان

obeikandl.com

١

أنكر شباب قريش من صاحب الحان إعراضه عنهم ، وما ظهر من انقباض وجهه وتقطب جبينه ، وما أحسوا وراء ذلك من فتور النفس ، وجمود القلب ، وشرود الخاطر ، واشتغال البال .

وكان هؤلاء الفتيان المترَفون من شباب قريش قد تعوّدوا من صديقهم هذا الرومى نشاطاً للشراب إذا نشطوا له ، وإقبالا على اللهو إذا أقبلوا عليه ، ومشاركة فى اللذة إذا أخذوا فيها ، قد مُحيت بينهم وبينه الفروق ، ورفعت بينهم وبينه الحجب ، وأصبحت الأمور بينهم وبينه ميسرة هينة ، تجرى على المودة والإلف ، وعلى السذاجة والإسماح ، كما تجرى بينهم وبين أنفسهم ، أو خيراً مما تجرى بينهم وبين أنفسهم . يقبلون عليه مصْبحين ، ويقبلون عليه مُمسين ، ويقبلون عليه فى أى ساعة من ساعات النهار والليل ، فلا يرون منه إلا نشاطاً وانبساطاً ، وإلا إقبالا عليهم وإيناساً لهم . فإذا أخذوا فى شرابهم ، وأقبلوا على لذّاتهم ، واستمعوا لأولئك المغنيات الروميات اللاتى كنّ يفتنهم بالصوت واللحظ ، وبغير الصوت واللحظ من أسباب الفتنة وألوان الإغراء ، أقبل الخمارُ الرومى معهم على هذا كله ، لا إقبال التاجر الذى يُغرى بتجارته ويرغب فيها ، بل إقبال المخلص فى حب اللهو ، المسرف فى إيثار اللذة ، المتهالك على أن يأخذ نصيبه من الدنيا قبل أن يدفعه الموت إلى تلك الطريق التى

يعرف أوّلها ثم يجهل من أمرها بعد ذلك كل شيء .

وكانت الكلفة قد ارتفعت بين هذا الرومىّ وبين زوّاره من فتيان قريش هؤلاء ، فكانوا يشربون ويطربون ، ويؤدّون إليه ثمن لذاتهم إن حضرهم المال ، فإذا لم يحضرهم لم يجدوا بذلك بأساً ، ولم يمنعهم ضيق ذات أيديهم أن يمضوا فيما يحبون من عبث ولهو . ولم يُظهر لهم صديقهم الرومىّ تجهماً ولا تلكؤاً ، ولم يبطئ عليهم فى شيء مما كانوا يريدون ، لا لأنه كان واثقاً بأن حقوقه ستؤدى إليه كاملة فحسب ، بل لأنه كان قد أحب هؤلاء الفتيان وأنس إليهم . ولولا بقية من أصله الرومى كانت تضبط أموره وتردّه إلى الصواب والحزم ، لا ندفع مع هذا الحب إلى غير حدّ ، ولألغى بينه وبين هؤلاء الفتيان من أشراف قريش كل حساب .

فلما أقبلوا عليه من ليلتهم تلك لم ينشط لما كانوا ينشطون له ، ولم يلقهم بما تعوّدوا أن يلقاهم به من البشر وطلاقة الوجه ، وإنما استقبلهم فى شيء من الفتور لم يلبثوا أن أحسوه وشعروا به ، ولكنهم لم يُظهروا مما أحسوا شيئاً . وخلى الرومى بينهم وبين ما أحبوا من شراب ولذة ، ومن مجون وعبث ، واندفعت المغنيات الثلاث يرددن عليهم أصواتهن الغريبة العذبة ، ويُوقعن لهم ألحانهن الشجية الحلوة . وجعلوا يسمعون ويعجبون ، ويُفتنون ولا يُفهمون ، وجعلوا يستعينون على هذا كله بالإغراق فى الشراب ، والاستباق إلى الإكثار منه ، مسرفين فى المزاح ، متهالكين على الدعابة ، يقول بعضهم لبعض : لن يتأخر قدوم العير بما تقدّم إليها الخمار فى أن تحمل إليه من نبيذ الشام

وفلسطين ، فلا ينبغى أن ننصرف عنه الليلة حتى نستنفد ما عنده من نبيذ قديم . وكانوا يلمحون له بدعابتهم ، ويلحون عليه بمزاحهم ، ويحرّضونه على مشاركتهم ، فلا يجدون منه إصغاءً إليهم ولا انتباهاً لهم ، فيمضون فى أمرهم متكلفين أن يلقوا إعراضاً بإعراض ، وجفاء بجفاء . ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا كأن شيئاً ينقصهم ، وكأن اللهو لا يستقيم لهم ، وكأن نفوسهم لا تستجيب لهذه اللذات التى تدعوها فتلح فى الدعاء . ولا يشكون فى أن انقباض هذا الرجل الرومى عما ينبسطون له هو مصدر ما يجدون من حرج وضيق ، ومبعث هذا الفتور الذى أخذ يسعى إليهم شيئاً فشيئاً ، فيلهيهم عن الألحان وأصوات الغناء ، ويكاد يصرفهم عما بين أيديهم من هذه الأقداح التى لم تتعوّد الانتظار .

هنالك يُقبلون على صديقهم الرومىّ لائمين أوّل الأمر ، ثم ملحين فى اللوم . فإذا لم يجدوا منه عناية بهم أو استماعاً لهم رقّوا له ورفقوا به ، وتحولوا إليه عن شرابهم وغنائهم ، وجعلوا يسألونه سؤال الصديق عما عرض له من أمر ، وما نزل به من خطب ، وما ألمّ به من مكروه . ويبلغ رفقهم هذا الحلو قلب الرومى فيتأثر به ويلين له ، ويتصل بين هؤلاء الفتيان من أشراف قريش وسادتها وبين هذا الخمار الرومى حديث غريب لا ينقضى إلا وقد كاد الليل ينجلى عما كان قد غمر من الأودية والبطاح .

٢

قال الخمار الرومى لأصدقائه من شباب قريش : « عزيز على أن ألقاكم بما لقيتكم به من الفتور ، وقد عودتكم أن أكون لكم مكرماً ، وبكم حفيًّا . وعزيز علىّ أن أقصر عما تقدمون عليه من هذه اللذات التى كنت أسابقكم إليها فأسبقكم ، وأنازعكم الاستمتاع بها فأكون أوفركم منه حظًّا وأعظمكم منه نصيباً . وعزيز علىّ أن يُعديكم هذه الفتور ويبلغكم هذا القصور ، فتُصَدّون عما تحبون ، وتُصْرَفون عما تألفون . ولكن ثقوا أنى لم أقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفعت إليه مكرهاً عليه » .

قال صفوان بن أمية : « فإنا ما نشكّ فى أنك لم تلقنا بهذا الإعراض والفتور إلا وقد عرض لك من الأمر ما اضطرك إلى ذلك . وقد عودناك أن تفضى إليك بأسرارنا وجلية أمورنا ، لا نخفى عليك منها شيئاً . فأفض إلينا بدخيلة نفسك وجلية أمرك ! فلعلنا أن نكون عند ما تحب من المعونة لك والترفيه عليك » .

قال صاحب الحان : « فإنى أخشى أشد الخشية ألا تملكوا لى من هذا الأمر الطارىّ شيئاً » .

قال صفوان : « إنك ضيفنا وجارنا وصديقنا ، وصاحب لذتنا وشريكنا فى هذه اللذه . فلسنا لقريش إذاً إن بخلنا عليك بالمعونة ، أو آثرنا أنفسنا بالأمن والراحة والنعيم من دونك . وإنك لتعرف من

قريش قراها للضيف ، ووفاءها للجار ، وبرها بالصديق ، وأداءها للحقوق ».

قال صاحب الحان : « فإن هذا الأمر الطارئ ليس مما تظنون فى شىء ، وإنى لا أدرى كيف أباديكم به وأتحدث إليكم فيه ، ولو أن الذى عرض لى كان مما تعودتم أن تردّوه عن الضيف والجار والصديق لما أبطأت فى إنبائكم به وإظهاركم عليه . ولكنه لون آخر من الأمر لم تتعودوا أن تروه ، وضرب آخر من الخطب لم تتعودوا أن تشهدوه . وما أدرى أتفهمون عنى إن تحدثت إليكم بما عرض لى ! وما أدرى أترضون إن فهمتم ما ألقى إليكم من الحديث أم تسخطون ! فإنه أمر غريب حقًّا ! غريب حقًّا ! » . ثم أطرق الرومى وترك هؤلاء الفتيان من شباب قريش وقد أخذهم شىء يسير من الوجوم بهذا الحديث الغريب ، وجعلوا يتقارضون فيما بينهم ألحاظاً قصاراً سراعاً . ثم رفع الرومى إليهم رأسه ، فلما رآهم على هذه الحال ابتسم لهم رفيقاً بهم ، وقال فى صوت هادئ بعيد : « ما أحب لكم أن تُصرفوا عن أمر لذتكم إلى هذا الأمر الذى ما أراه يعنيكم من قريب أو بعيد ، فعودوا إلى ما كنتم فيه موفورين . ولو استطعت لشاركتكم فى اللهو ، ولأعنتكم عليه ، ولكن نفسى محزونة منذ الليلة حقًّا ! » .

قال صفوان : « فإنا لن نتحول عنك إلى لذتنا ، ولن ننصرف عنك إلى بيوتنا حتى نعلم علمك ، وحتى نرى أقادرون نحن على أن نعينك أم عاجزون عن أن نبلغ من ذلك بعض ما نريد . فاقصص علينا أمرك ولا تبطئ ! فإنك قد شوقتنا إلى حديثك هذا الذى تخفيه فتمعن فى إخفائه وتلتوى به علينا أشد الالتواء » .

قال الرومى : « إنى لا أخفى عليكم شيئاً ، ولا ألتوى عليكم بشىء ، ولكنى أدير هذا الأمر فى نفسى ولا أعرف كيف أباديكم به » .

قال صفوان وهو يتكلف الضحك : « فبادنا به كيف شئت وعلى أى وجه أحببت ! فإنى أخشى إن طال بك هذا الصمت وألح عليك هذا الالتواء أن نشقّ عن صدرك لنرى ما يضطرب فيه من عاطفة ، ونشجّ رأسك لنظهر على ما تدير فيه من رأى وما تجيل فيه من حديث » .

قال الرومىّ وهو يبتسم : « ما أوفاكم إذاً للجار ، وأرعاكم إذاً للصديق ! » .

قال صفوان : « فإنك مظهرنا على أمرك طائعاً أو كارهاً ! فقد طال منك الصمت ، وطال منا الإلحاح ، وقد تقدم الليل ، وإنا خليقون أن نبقى حولك حتى يدركنا الصبح نسألك ونلح عليك ؛ فأرحْ نفسك وأرحنا من السؤال والإلحاح » .

قال الرومى وهو يظهر تردداً شديداً ، ويأخذ نفسه بالعنف لأنه يُقدم على أمر عظيم : « فإن الأمر الذى أهمنى لا يتصل بى وإنما يتصل بكم » .

قال صفوان : « فذلك أجدى أن تبادينا به وتظهرنا عليه ! » .

قال الرومى : « فإنه لا يتصل بحياتكم حين تأوون إلى بيوتكم ، أو تهرعون إلى هذا الحانوت أو تضطربون فى الأرض ، وإنما يتصل بآلهتكم » .

ولم يكد هؤلاء الفتيان من قريش يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل ، ثم سكت عنهم الضحك بعد

حين ، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، فى شىء غريب من الفرح والمرح ، وفى إشارة إلى الغلام أن يملأ لهم أقداحهم . ثم نظر صفوان إلى صديقه الرومى نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق وقال : « قد كنا نحسب أن التفكير فى الآلهة والحديث عنهم أمر مقصور على نفر من قريش تقدّمت بهم السن وتقلبت عليهم الحياة ، وفرغوا لهذا العبث ، فجعلوا يخوضون فيما ليس للناس أن يخوضوا فيه . ولكن الأمر قد تجاوز هؤلاء الشيوخ من قريش إلى جيراننا من الروم . أوَمسّتك العدوى إذاً ؟ أوَ جعلت تصبو إلى ما يصبو إليه هؤلاء النفر من شيوخنا ، وتحرص على أن تمتاز بما يمتازون به من التحرج والتكلف ، وإنفاق الجهد فيما لا ينبغى أن ينفق فيه الجهد ؟ ! لقد جفّت حلوقنا يا غلام ، فأسرع إلى هذه الأقداح فاملأها ، وأسرع إلى مولاك بشىء من شراب ، فما نرى إلا أن نفسه قد ظمئت ، وما نرى إلا أن ظمأ نفسه قد اضطرها إلى هذا الحديث » .

قال الرومى : « أما إنك قد قلت الحق وأنت لا تدرى ! فإن نفسى لظمئة ، وإن ظمأها لأشدّ مما تظن » .

قال صفوان : « تظمأ وعندك أكرم ما جادت به بَيْسان من نبيذ ! » .

قال الرومى : « ما صدفت نفسى قط عن الخمر كما تصدف عنها الآن . إنى لشديد الظمأ ولكن إلى شىء آخر ما أرى أنكم تفقهونه أو تفطنون له » .

قال صفوان وهو مغرق فى الضحك : « إنك لظمىء إلى ما كانت

تظمأ إليه نفس زيد بن عمرو! فقد طلبته جاهدة فلم تظفر به ، ولم ترو ظمأها باليقين ، وإنما روّته بهذا الدم الزكى الذى لم نثأر له بعد ، والذى لا بد من الثأر له . وإنك لظمىء إلى ما كانت تظمأ له نفس ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ! فإن ورقة بن نوفل ليقيم منك غير بعيد فتحولْ إليه واستمعْ له ! فقد يُروى نفسك بما وعى من علم النصارى ، وما حفظ من سخف الروم . ولكن لا تنس أن تخلى بيننا وبين ما بقى لك من خمر ، وأن تحكمنا فيما ستقدمُ عليك به العير بعد أيام » . ثم تضاحك القوم ورفعوا الأقداح إلى أفواههم ، ثم ردوها ولم يذروا فيها شيئاً .

قال الرومى : « فأما وأنتم تفقهون أمر هؤلاء النفر من قريش ، فما أشك فى أنكم ستفهمون عنى إن حدّثتكم بما يضطرب فى نفسى من الأمر . ولقد أسأت بكم الظن فمعذرة إليكم . لقد رأيتكم لا تحفلون إلا بما يحفل به أترابكم من اللهو ، ولا تقبلون إلا على ما يقبل عليه لداتكم من اللذة والنعيم » .

قال صفوان : « فإن لنا على ذلك عقولا تستطيع أن ترقى إلى حكمتك العليا . ولكن ما رأيك فى أنها زاهدة فى هذه الحكمة ، راغبة عنها ! ! فإنا لم نأتك لتتحدث إلينا عن الآلهة ، وما ينبغى لغير قريش أن يتحدث عن آلهة قريش . ولقد أطلت فينا المقام ، فكنت خليقاً أن تعرف من أمرنا أكثر مما عرفت . وما نظنك إلا أدركت شيئاً مما لقى زيد بن عمرو ، وقد كان أوسطنا نسباً ، وأرفعنا حسباً ! فخذ فى حديث آخر غير حديث الآلهة . فما كنا لنكره ذلك من شيخ

قرشى ثم نرضاه من رومىّ غريب أقبل علينا ليسقينا الخمر ويُسمعنا الغناء » .

قال الرومىّ وقد ظهر عليه بعض الحزن : « ألم أقل لكم إنى كنت مشفقاً أن يسوءكم حديثى ، وإنى كنت راغباً عن أن أوذيكم ! » .

قال فتى من القوم : « فإنك لم تؤذنا وإن حديثك لم يسؤنا ، وإنك لم تظهرنا بعدُ على هذا الحديث . ولكن فى صفوان حدة وسرعة إلى الغضب ولا سيما حين يثقل عليه الشراب ، فامض فى حديثك راشداً ، وأشركنا فى هذا الهم الذى غيّر سيرتك منذ الليلة » .

قال صفوان : « ما أدرى ماذا عرض لى ؛ فإن حديثك لم يسؤنى ولم يؤذنى ، وإنما أخذت فى الدعابة حين سمعتك تتحدث عن الآلهة ، فما أسرع ما استحالت الدعابة إلى جدّ مرّ ، فامض فى حديثك وخلاكَ ذمّ » .

قال الرومىّ : « أقبلو على شأنكم ، وخذوا فى لهوكم ، أو تفرّقوا إلى بيوتكم فقد تقدّم الليل » .

وأحس القوم أن نفس الرومىّ مقسمة بين الغضب والخوف ، فعادوا إلى الرفق به والتلطف له ، حتى ردّوه إلى الأمن والهدوء ، ثم مضوا يسألونه عن حديثه ، ويلحون عليه فى أن يتمه .

قال الرومى : « أتعرفون أنى نصرانى ؟ » .

قال صفوان : « نعرف أنك نصرانى كغيرك من الروم ، لكنا لم نر منك قط إقبالا على الدين ، ولا إمعاناً فى النسك » .

قال الرومىّ : « فاعلموا أنى لست نصرانيًّا ، أو اعلموا أنى لم

أخلصُ للنصرانية قط ، وأنى لم أقدمْ على بلدكم هذا النائى البعيد من بلاد الروم لأسقيكم الخمر وأسمعكم الغناء ، وإنما أقبلت إليكم مهاجراً بهذه الوثنية التى كنت أخفيها فى بلادى من أرض الروم ، وأجد فى إخفائها جهداً لا يحتمل ، وعناء لا يطاق » . فلما سمع القوم من حديث الرومى عجبوا له ، وشغفت نفوسهم بالقصة فأصغوا أشدّ الإصغاء .

قال الرومىّ « إنكم لا تعرفون من أمرنا نحن الروم إلا أقله وأيسره . وإنكم لتجهلون وثنيتنا القديمة كما تجهلون نصرانيتنا الحديثة . ولو قد علمتم من أمرنا أكثر مما تعلمون لكان فهمكم عنى أعمق وأصدق . إن وثنيتنا القديمة ليست من اليسر والسذاجة بحيث ترون ما أنتم عليه من دين ؛ فإن لآلهتنا القدماء أخباراً طوالا ، وأنباء غريبة ، تكلف بها النفوس ، وتألفها القلوب ، وتصبو إليها الطباع . وقد كان آلهتنا القدماء أشدّ اختلاطاً بنا ، ومعاشرة لنا ، واشتراكاً معنا فى جد الحياة وهزلها من آلهتكم . فلا جرم تمكّن حبها فى قلوبنا ، واختلط بنفوسنا ، وجرى مع دمائنا ، وكانت حاجتنا إليهم كحاجتنا إلى الهواء الذى نتنفسه ، وإلى الطعام الذى نقيم به أودنا ، وإلى الشراب الذى ننقع به الغلة ونبلّ الصدى ، وإلى المعرفة التى نغذو بها عقولنا ، ونرقّى بها قلوبنا ، وننقّى بها طباعنا من الأوضار والآثام . فلما جاء الدين الجديد ، ضقنا به أشد الضيق ، ونفرنا منه أشد النفور ، وقاومناه أعنف المقاومة وأقساها ، وضحينا فى سبيل آلهتنا القدماء بكثير جداً من النفوس والدماء والأموال أكثر مما تستطيعون أن

تتصوروا . ولكن الإله الجديد كان أقوى من آلهتنا وأعظم سلطاناً ؛ فلم تثبت له الآلهة ، وإنما انهزمت أمامه وفرّت من معابدها وهياكلها ، وأذعن أكثرها لهذا الإله الجديد ، ووَفى أقلنا لأولئك الآلهة المشرّدين . وقد نشأتُ فى أسرة من هذه الأسر التى توارثت الوفاء لأولئك الآلهة ، والتى كانت تؤدّى النصرانية لقيصر كما تؤدى له الضريبة التى يفرضها على الأموال ، فإذا خلت إلى نفسها وفتْ لآلهتها ، وأخلصت لها الدين محتاطة متحرجة ، بالغة من التحرج والاحتياط أقصى ما كانت تستطيع أن تتحمل . ولكن قيصر قد اشتد فى دينه . ولم يكتف من رعيته بالطاعة الظاهرة ، وإنما أراد أن يخلص إلى دخائل النفوس وضمائر القلوب ، وأن يحاسب الناس على آرائهم كما يحاسبهم على أعمالهم . فلقينا من ذلك جهداً أشد الجهد ، وعنتاً أعظم العنت ، حتى تحوّل كثير منا عما كان يضمر من حب آلهتنا . وإنا لفى ذلك العناء وإذا أنا أسمع حديثاً عن بلدكم هذا يغرينى به ويدفعنى إليه ، ويخيل إلىّ أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد الروم إلى العرب ، فأقاموا فيها ، وفرغوا لأهلها يبسطون عليهم من سلطانهم العذب ما كانوا يبسطونه على الروم » .

قال صفوان : « وما ذاك الحديث ؟ » .

قال الرومىّ : « حديث ذلك الجيش النصرانى الحبشى الذى أقبل على بلدكم هذا ليهدمه ويدمره ، مقدماً بين يديه فيله العظيم . فما كاد يدنو من حرمكم هذا حتى رُدّ عنه أقبح الرد وأشنعه ، وحتى سلطتْ عليه تلك الطير التى مزّقته تمزيقاً » .

قال صفوان : « فإن رب الحرم قد ذاد العدوّ عن الحرم ، ما نجد فى ذلك غرابة ولا عجباً » .

قال الرومىّ : « أما نحن فقد وجدنا فيه الغرابة كل الغرابة ، والعجب كل العجب ، وأوّلناه ألواناً من التأويل . فأما رهباننا وأحبارنا فقد فهموا منه شيئاً آخر. ظن الأحبار والرهبان أن هذه آية قدّمتها السماء بين يدى آيات أخرى أكبر منها وأعظم خطراً . وظن الأحبار والرهبان أن أمور الناس ستتغير وتتبدل ، وأن ما أنزل على اليهود والنصارى من الدين سيتم فى هذا البلد الذى رُدّ عنه الفيل . وظننا نحن كما قلت لكم أن آلهتنا قد هاجروا إلى هذا البلد ، وأنهم قد ردّوا جيش الحبشة والروم عنه ، كما ردوا جيش الفرس عن بلاد اليونان منذ قرون . وتمتلئ نفسى بحب الآلهة ، وتطمئن نفسى إلى هذا التأويل ، وتحدثنى نفسى بالهجرة إلى بلادكم لألقى فيها آلهتنا ، ولأرى فيها تماثيلهم ، ولأعبدهم حرًّا ، وأتقرب إليهم ، مظهراً ذلك لا مستخفياً به ولا محتاطاً فيه . وأفكر فى الرحلة إلى هذه الأرض ، وفى الحياة التى سأحياها فى هذا البلد ، وفى رزقى كيف أكسبه . فأتصل بالذين كانوا يفدون على بلادنا من تُجاركم ، فأعلم منهم علم هذه البلاد ومن يعيش فيها من الناس ، وأقدمُ مع بعض قوافلكم تاجراً أسقيكم خمر الروم ، وأسمعكم غناء الروم . وإن لى فى بلادكم لأربًا غير هذا وذاك . وما أخفى عليكم أنى لم أبلغ بلادكم ولم أستقر فى أرضكم حتى أدركتنى خيبة الأمل ، وحتى جعلت نفسى تحدثنى بأن الأحبار والرهبان ربما كانوا أدنى منى إلى الحق ، وأقرب منى إلى الصواب ؛

فقد رأيت تماثيل آلهتكم ، ورأيت سيرتهم فيكم وسيرتكم فيهم ، فلم أعرف من هذا كله شيئاً ، ولم تعطف نفسى على صنم من هذه الأصنام القائمة ، ولم يمل قلبى إلى وثن من هذه الأثان المنصوبة ، ولم يرتبْ ضميرى فى أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد اليونان لا ليستقروا فى بلاد العرب ، ولكنهم مضوا إلى وجه من الأرض أو من السماء لا نعرفه ولا نهتدى إليه .

هنالك أخفيت أمرى فى مكة كما كنت أخفيه فى طرسوسَ ، وأظهرت لكم نصرانيتى هذه الرقيقة كما كنت أظهرها فى أرض قيصر ، وفرغت للتجارة واستثمار المال ، فجعلت أسقيكم الخمر ، وأسمعكم الغناء ، وأفيد منكم مالا كثيراً . ولكنكم أخذتم منذ حين فى هدم بيتكم هذا وتجديد بنائه ، فكان ذلك مصدر ما أنا فيه من الاضطراب » .

قال صفوان : « وما ذاك ؟ » .

قال الرومى : « ألم تفكروا فى أصنامكم هذه القائمة حول هذا البيت والمسندة إليه ما عسى أن تصنعوا بها أثناء الهدم والبناء ؟ ! » .

هنالك نظر بعض القوم إلى بعض نظرة لا تخلو من معنى .

وقال صفوان : « وماذا كنت تريد أن نصنع بها غير ما صنعنا ؟ ! » .

قال الرومىّ : « لم أكن أريد شيئاً ، وإنما كنت أنتظر » .

قال صفوان : « كنت تنتظر كما كنا ننتظر أن تتحول الآلهة عن أماكنها ، وأن تبهرنا بانتقالها إلى حيث تأمن معاول الهادمين . ولكن الآلهة لم تتحوّل فحوّلناها ، ولم تنتقل فنقلناها . وإذا تم البناء فسنرد ما نقلناه منها إلى أماكنها الأولى. فماذا تنكر من ذلك ؟ ! إنا لم ننكر منه شيئاً » .

قال الرومىّ : « فقد كنتم تنتظرون من الآلهة مثل ما كنت أنتظر ؟ » .

قال صفوان ضاحكاً : « ولكن الآلهة لم تحقق آمالنا ، ولم تفعل ما كنا ننتظر منها . أفنكره الآلهة على ما لا تريد ! يا غلام ! قد جفت حلوقنا فاملأ الأقداح » .

ثم التفت إلى الرومىّ وهو يقول : « إنك لتُعنِّى نفسك بأيسر الأمر وأهونه . إن أخصّ ما يميز الآلهة أنهم يفعلون ما يريدون هم لا ما نريد نحن » .

قال الرومىّ : « ولكنهم لم يفعلوا شيئاً » .

قال صفوان : « فمن حقهم ألا يفعلوا ، كما أن من حقهم أن يفعلوا » .

قال الرومىّ : « فإذا أتممتم بناءكم وبدا لكم ألاتردّوا آلهتكم إلى أماكنها أفتراها ترتد إليها على رغمكم ؟ » .

قال صفوان : « ما أدرى وما يعنينى من ذلك شىء . انتظرْ حتى يتم البناء ؛ فإن رأيت الآلهة قد ارتدت من تلقاء نفسها إلى أماكنها فقد ظهرت لك جلية الأمر . وإن رأيتنا نحن نردها إلى أماكنها كما حوّلناها عنها فاعلم أنها قد أخذتنا بذلك وأرادتنا عليه . وإن رأيتها قائمة حيث وضعناها ورأيتنا نتركها حيث هى فاعلم أنها تريد ذلك ، وتطمئن إلى أماكنها الجديدة . وأرحْ نفسك كما نريح أنفسنا من التفكير فى الآلهة ، واشغل نفسك كما نشغل أنفسنا عن أمور الآلهة بأمور الناس ، وعن حركات الآلهة بحركات هؤلاء الإماء الثلاث اللاتى يوقعن ويغنين فيكلفننا من أمرنا شططاً » .

وتفرّق هؤلاء الفتيان من قريش عن صاحبهم الرومى آخر الليل ، وإن بعضهم ليقول لبعض : ويلكم ! لقد فطن هذا الرومى لما فطنتم له . ولئن جاز لنا نحن أن نشك فى آلهتنا أو نسخر منها ، فما ينبغى أن يجوز ذلك لرومىّ يسقينا الخمر ويسمعنا الغناء . ويلكم ! ارفعوا ذلك إلى الملأ من قريش ! ليدبروا أمرهم وأمر الآلهة ! فإنه فى حاجة إلى التدبير ، وليحتاطوا أن يشيع هذا الشك فى عامة الناس وضعفائهم ، وفى هؤلاء الأجانب الذين يملئون مكة من الفرس والحبش والروم .

ولكنهم راحوا على صاحبهم الرومىّ من الغد ليستأنفوا عنده لهوهم ولذّتهم ؛ فلم يجدوه ولم يجدوا إماءه الثلاث ، وإنما وجدوا حانوتاً خالياً إلا من دنان وزقاق كان فيها فضل من شراب .

٣

واستقر حديث الرومى فى نفوس هؤلاء الفتيان ، وما أدرى أتحدثوا به إلى الملأ من قريش أم أخفوه عليهم ، ولكنهم لم ينسوه على كل حال ، وإنما جعلوا ينتظرون أن يتم بناء البيت ، ويتساءلون إذا التقوا — كما يسأل كل واحد منهم نفسه منفرداً — : ماذا عسى أن يصنع الآلهة ليعودوا إلى أماكنهم ؟ أيسعون إلى هذه الأماكن ليستقروا فيها ، أم ينقلون إلى هذه الأماكن محمولين على الأيدى والأعناق كما حوّلوا عنها محمولين على الأيدى والأعناق حين أخذت قريش فى هدم البيت ؟

وليس من شك فى أن الملأ من قريش قد فكروا فى هذا الأمر كما فكر فيه الشباب ، وانتظروا من الآلهة مثل ما انتظر الشباب . ولكن شيوخ قريش كانوا أمكر وأمهر من أن يظهروا من تفكيرهم شيئاً . وكانوا أضبط لأمورهم وأملك لعواطفهم من أن يظهروا الشباب وضعاف الناس على ما خالط قلوبهم من ريب ، وشاع فى نفوسهم من شك ، حين رأوا آلهتهم يُنقلون كما ينقل المتاع ، ويرَصّون فى أماكنهم الجديدة كما يرَصّ الأثاث . ومهما يكن من شىء فقد أتمت قريش بناء البيت ، وانتظرت بالآلهة يوما ويوماً ، فلما لم تجد منها إرادة ولا حركة ولا تحولا إلى أماكنها ردّتها إلى تلك الأماكن ردًّا ، وحملتها إليها حملا . واستقر فى نفوس الشيوخ والشباب شك عظيم .

وربما ظهر الأمر ببعض أولئك الشيوخ والشباب إلى ما هو أبعد من الشك والريب ، وأدنى إلى الجحود والإنكار .

ولكن محنة قريش فى آلهتها لم تقف عند هذا الحد الذى قد يفطن له أذكياء القلوب ، وأصحاب العقول النافذة والأحلام الراجحة ، ولكنه يخفى عادة على الدهماء ويجلّ عن أن تعرفه عامة الناس ، وإنما جاوزته إلى شىء خطير رأت فيه قريش خطباً عظيماً وافتضاحاً منكراً لما لم يكن ينبغى أن يفتضح من أمر الآلهة . فقد أسندت قريش من آلهتها إلى البيت ما أسندت ، وأقامت قريش من آلهتها حول البيت ما أقامت ، وخيل إليها أن قد فرغت من هذا الجهد الشاق ، وخلصت من هذا العناء الثقيل . ثم اجتهد الأشراف والسادة فى أن شغلوا عامة الناس ودهماءهم عن التفكير فى جمود الآلهة وقصورهم ، فأقاموا الأعياد ، وأكثروا من التقريب للآلهة ، وأسرفوا فى أموالهم ليطعموا الفقراء والبائسين ، وألحوا فى ذلك وقاموا عليه حتى تجاوز كرمهم أهل مكة إلى من كان يضرب حولها من الأعراب الذين جعلوا يقدّمون على مكة ، يلتمسون فيها حظوظهم من هذه الإبل والشاء التى كانت تقرّب إلى الآلهة فى غير انقطاع . ولكن قريشاً تصبح ذات يوم فتغدو على البيت فترى ، وياهول ما ترى ! ترى آلهتها مجدّلين قد صرّعوا حول البيت تصريعاً ، منهم المستلقى على ظهره ، ومنهم المنكبّ على وجهه ، ومنهم المضطجع على أحد جنبيه وما أصف لك شيئاً مما ملأ قلوب قريش من الروع والهلع ! فأنت قادر على تصور ذلك إذا قدّرت إعظام العامة لآلهتها ، وحرص

الخاصة على ما ينبغى لهؤلاء الآلهة من جلال ووقار .

وتُقبل قريش على آلهتها فتردّهم إلى أماكنهم ، وتقرّهم فى مواضعهم ، ثم تستشير وتستخير وتدير بينها ألوان الرأى ، ثم يستقر الأمر بينها على أن الآلهة لم يرضوا بعدُ عما نحر لهم من ضحايا وما سفك حولهم من دماء . فتستأنف قريش ما كانت قد أخذت تعرض عنه من التضحية والتقريب ، وهذه الإبل تنحر ، وهذه الشاء تذبح ، وهؤلاء الفقراء ينعمون بعيش رغد وسعة متصلة . ولكن قريشاً تصبح من الغد فإذا آلهتها مجدّلون حول البيت ، قد فعلت بهم الأفاعيل !

ويعظم لذلك همّ قريش ، وتمتلئ لذلك قلوب قريش حزناً وأسى ، منهم الصادق المخلص ، ومنهم المشفق الماكر ، ولكنهم على كل حال يقيمون الأصنام ، ويجددون التضحية ، ويستشيرون الكهان ويجدّون فى البحث والاستقصاء ، لعل فى مكة قوماً يمكرون بالآلهة ، ويدبرون للحرم وأهله كيداً . وقد أقاموا الحراس حول البيت أثناء النهار ، فلم ير الحراس شيئاً ينكرونه . وأقاموا الحراس حول البيت آناء الليل ، فقاموا حذرين أيقاظاً ينتظرون ، ولكن انتظارهم لم يطل وإنما هو انتصاف الليل وتقدمه بعد ذلك شيئاً ، وإذا بضجيج يُسمع ، وأصوات تقرع الآذان . وينظر الحراس فيرون — ويا هول ما يرون ! — الآلهة وقد صرّعوا حول البيت تصريعاً ، فيفرون وقد ملكهم الخوف واستأثر بهم الفزع .

وقد أشار الكهان على قريش بأمر عظيم وقفت له القلوب فما تخفق ، وجمدت له الدماء فما تجرى ، ووجمت له النفوس فما تستطيع

روية ولا تفكيراً ، وهلعت له النساء فى البيوت ، وأشفق منه سكان مكة جميعاً إشفاقاً عظيماً ! فقد زعم الكهان لقريش أن لحوم الإبل والشاء ودماء الإبل والشاء ما كانت لترضى الآلهة بعد أن حولت عن أماكنها ، وبعد أن هدم بيتها وأعيد بناؤه ! ولا بدّ من أن يقرّب إلى الآلهة لون آخر من القربان يقنعهم بأن عبادهم من قريش لا يجودون عليهم بالأموال وحدها ، وإنما يتقربون إليهم بالأنفس أيضاً . وقال الكهان لقريش : يجب أن تقرّبوا لآلهتكم من أجيالكم الثلاثة رجلا وامرأة قد تقدمت بهما السن حتى أشرفا على الموت ، وفتى فى نضرة الشباب ، وصبيًّا وصبية من الأحداث . فإن لم تفعلوا فما ندرى ماذا يصنع الآلهة ؛ فإنهم لم يفعلوا إلى الآن أكثر من أن قدموا إليكم النذُر ، فأسرعوا إلى إرضائهم ! فإنا نخشى أن تسوء العاقبة ، وأن تصبحوا فلا تروا آلهتكم بينكم ، وألا تمضى بعد خروجهم عنكم أيام حتى يسلط عليكم شر عظيم . ولو استمع الملأ من قريش لما كانت تضطرب به نفوس الدهماء وعامة الناس لأطاعوا أمر الكهّان ، ولتقرّبوا إلى آلهتهم بهذا الإثم المنكر . ولكن الملأ من قريش كانوا أمكر من ذلك وأمهر ، وكانوا أحزم من ذلك وأعزم ! فقد خلصوا نجيًّا ذات ليلة فى دار ندوتهم ، وجعلوا يتشاورون ويديرون أمرهم بينهم . وليس من شك فى أنهم قد تلاوموا وتلاحوْا ، وألقى بعضهم على بعض تبعة ما كان من هدم البيت وتجديد البناء ، ولكنهم كانوا مجمعين أمرهم على ألا يذعنوا لما يأخذهم به الكهان ، ولا يقدّموا إلى آلهتهم أبناءهم وبناتهم وأن أمر الآلهة فى نفوس هؤلاء الشيوخ

الذين عركتهم التجارب لأهون من ذلك وأيسر . ولكن الملأ من قريش ينظرون فإذا بينهم رجل غريب ينكرونه ، ثم لا يلبثون أن يعرفوه ، شيخ قد تقدمت به السن ، واتخذ زيّ النجديين ، لم يكن بينهم حين اجتمعوا ولكنه ظهر فيهم فجأة ، لا يدرون من أين أقبل وهم قد أقاموا على الباب حراساً يمنعون أن يقتحمه أحد أو يدنو منه أحد . ولكنهم يذكرون أنهم قد رأوا هذا الشيخ النجدى ذات يوم حين أمضى الأمين حكمه فيهم ، وحين وضع الأمين الركن الأسود فى موضعه من البيت . رأوه يريد أن يشارك فى البناء فيردّ عن ذلك ردًّا عنيفاً ، فيظهر السخط ويعلن النذير ، ثم يستخفى فلا يظهرون له على أثر . فلما رأوه من تلك الليلة أقبلوا عليه يسألونه من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون ؟ فلا يرد على سؤالهم هذا جواباً ، وإنما يقول لهم فى صوت نحيف بعيد : « لقد أخذت النذر تتحقق يا معشر قريش . ألم أنهكم عن أن تحكموا بينكم رجلا كان أصغركم سنًّا ، وأقلكم مالا ، وأشدكم إعراضاً عن آلهتكم ، وأبعدكم من الاحتفاء بهم والإكرام لهم ! فقد أبيتم إلا أن تفعلوا ، وغضبت الآلهة مما فعلتم . وما أرى أن أموركم تستقيم إلا إذا نقضتم بناءكم شيئاً ، فأخرجتم الركن من موضعه ، ثم رددتموه إليه بعد أن تُضَحّوا لآلهتكم بمن أمركم الكهان أن تضحوا بهم . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الآلهة ، لا قِبَل لكم بها ولا قدرة لكم عليها . والخير يا معشر قريش أن تريحوا أنفسكم من هذا الأمين ؛ فإنكم إن أبقيتم عليه لم يبق عليكم ، وإن مددتم حياته لم يلبث أن يجذم حياتكم جذماً » .

ويسمع الملأ من قريش حديث هذا الشيخ مرتاعين له ، حتى إذا انقطع الصوت وهمّوا أن يحاوروا صاحبه نظروا فلم يجدوه بينهم ، وكأنه لم يدخل عليهم ولم يتحدّث إليهم .

هنالك تمتلىء قلوب القوم حيرة ، ويكادون يصرّفون عما كانوا فيه إلى السؤال عن هذا الشيخ : من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون ولكن الوليد بن المغيرة يقول فى صوت هادىء مطمئن : « ويحكم يا معشر قريش ! ما أرى إلا أن الشيطان يريد أن يعبث بكم ، ويصرفكم عما ألفتم وعما ألف الناس فيكم من الحزم والعزم ، ومن الأناة والوقار . إنه الشيطان يا معشر قريش ، ما أشك فى ذلك ! إنه قد ظهر بينكم ثم استخفى عليكم . وإنه قد أنذركم بالشر ، ودعاكم إلى أمر فظيع . أرأيتكم يا معشر قريش إن أخرجتم الركن عن موضعه ، تستطيعون أن تردوه دون أن يشجر بينكم الخلاف ، وتستيقظ فيكم الفتنة ، وينصب بعضكم لبعض الحرب ، ويدعو بعضكم بعضاً إلى القتال ؟ هل أنتم يا معشر قريش إن استمعتم لهذا المشير الخائن ، والنصيح الغاش ، فبطشتم بالأمين أو حاولتم البطش به ، إلا مضيعون للحق ، مهدرون للرحمة قاطعون للرحم ، تجزون الخير بالشر ، والمعروف بالمنكر ! فقد حقن الأمين دماءكم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تهدروا دمه . وقد أقر الأمين فيكم السلم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تثيروا بينكم وبين قومكم الحرب . لا والله ما دلكم هذا الشيطان إلا على الغى ، ولا دعاكم إلا إلى الإثم . ردّوا عليكم فضل أحلامكم ، ولا تكبروا من أمر هذه الأحجار غير كبير . إنى والله ما أراها كلها تعدل قطرة من هذه

الدماء التى ترادون على أن تسفكوها . أىّ أسرة من أسر قريش تريدون أن تفجعوها فى كبيرها أو صغيرها ؟ ! أيكم تطيب نفسه يا معشر قريش عن هذه التضحية بابنه أو بنته ، وبأبيه أو أمه ؟ ! إنكم لم تنسوا بعدُ قصة عبد المطلب وابنه عبد الله ، لقد كدتم تبطشون به ؛ لأنه كان يأبى إلا أن يضحى بابنه للآلهة . فإنكم لا ترادون الآن على أن تضحوا بواحد من قريش ، وإنما ترادون على أن تضحوا بستة من خيركم . لا تسمعوا لهذا اللغو ! وأمر هذه الأحجار أيسر عليكم وأهون فى نفوسكم مما تظنون ، ومما يخيل إليكم الشيطان » .

قال أمية بن خلف : « مهلا يا وليد! إنك لتقول الحق ، وتدعو إلى الرشد . ولكن خفض من صوتك ، ولنكتم على الناس هذا الحديث ! فإنه إن ذاع لم ينتج لنا إلا شرًّا ، والأمر بعد ذلك فى حاجة إلى التدبير . فما ينبغى أن يروح الناس عن آلهتهم وهم قائمون ، ثم يغدوا عليهم وهم مجدّلون » .

قال الوليد : « ما أرى إلا أن هذا الشيطان يعبث بنا وبهذه الأحجار ، يتخذها أسباباً ووسائل لكيد يدبّره ، وشر يقدره . يقيمها أثناء النهار ، وينيمها إذا جنّ الليل » .

قال أمية : « فاقترح علينا وسيلة نخلص بها من كيد الشيطان ، ونُكره بها الآلهة على أن يظلوا ويبيتوا كما عرفهم الناس قائمين ، غير نائمين ولا مجدّلين » .

قال الوليد : « كلوا إلىّ أمر هؤلاء الآلهة ، فعلىّ أن أجد لكم منه مخرجاً » .

وتفرق الملأ من قريش وهم لا يدرون ماذا يريد الوليد أن يصنع .

ولكن الوليد غدا على ذلك البناء القبطى الذى أقام لهم البيت ، فاستشاره فى ذلك ، وأفضى إليه برأيه جليا صريحاً فى هذه الأحجار . فلما سمع منه « باخوم » أطرق شيئاً ، ثم قال مبتسماً : « هلا صنعتم بآلهتكم ما نصنع نحن بما نريد تثبيته من البناء ! » .

قال الوليد : « وما ذاك ؟ » .

قال باخوم وهو لا يملك نفسه من الضحك: « شدوا آلهتكم إلى أماكنها بأسباب من الرصاص » .

قال الوليد : « هو ذاك ! » .

والغريب أن أصنام قريش ثبتت فى أماكنها واستقرت فى مواضعها بعد هذه الحيلة ، وعجزت عن أن تخلص من قيودها الرصاصية تلك ، فلم ترها قريش بعد ذلك إلا قائمة مكانها ، حتى كان يوم من الأيام رأتها فيه وقد حطمت تحطيماً .

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل الرواية فى إسناد له عن ابن شهاب الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : « جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع إلى قفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك:

وفى الأصنام معتبرٌ وعلمٌ ... لمن يرجو الثواب أو العقابا